دمعة القلب

إن ناتول فرانس اشهر كتاب فرنسا المحدثين ترك آثاراً خالدة لا تبلى لها جدة لكن هذه القصيدة من ابلغ ما خطته يراعته، لانه استمدها من عواطفه البنوية الحياشة اثر موت امه التي كان حبه لها يبلغ حد التقديس وهي « مرفوعة الى تلك الروح الطاهرة ، الى ذلك الملاك المتجسد ، الذي لم يكد يمس الارض بجناحيه حتى انف منها فعاد الى مقره السماوي » .

سرت وراء النعش مشيعاً آمالي ومُنى نفسي، وانا سامٍ ذاهل، اتطلع ولا ابصر، واسمع ولا اعي، فقد نضب معين دمعي، وجفت مآقيَّ، ولم يبقَ ما استقطره غير دماء قلبي، فالحزن العميق الصامت لا يَسخَب فيه ، وما هو الا تلاشي القوى المستمرة وانصهارها ، في الامل الخائب والاماني الضائعة

وقفت في المقبرة ، إزاء الحفرة العميقة، الفاغرة فاها لابتلاع هنائي وسعادتي، وقد وُضع على حافتها نعش الام الحنون، والجموع تحفُّ به ساكنة خاشعة ، واصوات التراتيل ترتفع على اجنحة الملائكة ، والبخور يعبق في الجو مثلوياً منسابا ، تعبث به انفاس الموتى ، فيشبه نفسي المترددة الحائرة ، التي تسير في الحياة لتُبتلى ايامها

وكانت الصلوات المنبثة من فم القسيس ، تَطنُّ في اذنيَّ، كأنها صدى دوي عظيم ، آتٍ من فج عميق، ويخيَّل اليَّ ان الكلمات اتخذت شكلاً ، وانها تئن وتبكي كما يئن قلبي الحزين ويبكي، وان التراتيل المرسلة الى العليِّ، تشيد روحي المحترقة التي الهبتها الاحزان، فارتفعت الى السماء شعلتها الاخيرة بعد ما تقد ما يقيتها على الارض

سكت المصلّي بعد ما استنزل على الراحلة الكريمة غيث الرحمة، فسكتت الانفاس المردَّدة وخشعت نفوس القوم، وطأطأوا رؤوسهم، لا اجلالاً لعظمة الموت، بل روعةً منهُ وخشية ، وأُنزل النعش بحبله المتين ليُوارى عن نظري الى الابد ، وتساقط عليه التراب تحت معاول الحفارين ، كأنهُ رذاذ المطر ، فعاودني احساسي ، وشعرت بأن كل نقرة حصاة تصيب النعش يردِّد صداها قلبي، فتقطر منهُ الحياة قطرةً فقطرة

قلب المرء ارضي، لانهُ يحب ليُحَب، اما قلب الوالدة فسماوي، لانهُ يحب من دون غاية ولا غرض، فشعور الام شعلة من قبس الله ، اودعها فؤادها ليسمو بالنفس الى مقرها العلوي، مطهراً ان ثمت شيئاً ارضياً لا يمتُّ بصلة الى المادة العالقة به

غادرت الرمس وقلبي على صغره وضعفه ، يحمل من عبء الاحزان ، ما تنوء به العواتق على قوتها، لان حبي البنوي ليس كغيره : راحة القلب الهادئة الساكنة ، بل هو عاطفة الحاجة السعيد تلتهم النفس التهاماً

***

سرت جارًا عبء الحياة وراءي كما يجر الميتُ كفنه اذا ما نُفخ في الصور، وقد مسحت يدُ الموت وجهي، وظلت سحابة العدم شابي وآمالي، فالوقت اعظم بلسم لإلتئام الجرح ، ولكن الّذي له ان ينال مني، وجرحي كنين، في النفس لا يصل اليه دواء، ولا يدركه عزاء فما سَلْوَى تلك الام في الثرى الذي دفنت فيه ، بل في اعماق روحي، تحوطها عواطفي بكل لهفة ، ويذرف عليها قلبي دموعه قطرة فقطرة ، ليرطب ثراها ، ويعطر ذكراها

***

ان في الحياة آلاماً مُبَرِّحَة تُصيب من لا يستحقها ، فتزعزع ثقته مهما قويت وتفلّ عزمته مهما اشتدت، وتذرُّ على محياه ظلال نفسه الحزينة الباكية ، فتبدو اساريره متحجبة، تعبّر بدون لفظ ، عن شجون روحه وآلامها

بُليتُ وانا في مستهلّ السادسة عشرة من عمري، بآلام كهذه استطار لها قلب امي، وهل في الحياة عطف وحنان، اشد وأقوى من عطف الام وحنانها، على من هم قطعة من كبدها ؟

***

وكانت احزاني تُلقي بذرّات شابي على الارض، كما تُلقي الرياح اوراق الورود الذابلة ، فتسلقفها عواصف الحياة الهوجاء ، وتذروها في فضاء اللانهائية ، ولم اكن اجد عزاء عما بي ، الا بوحدتي وانفرادي، لان بعض الاحزان لا سَلْوَى لها ، ولا تحتمل رؤية الناس والاختلاط بهم ، فكانت امي تُقبل عليّ حزينة القلب ، دامعة العين ، تودُّ لو تفديني بنفسها ، عارضةً عليّ بذلَ حياتها في سبيل راحتي وهنائي

***

ضمّتني طويلاً الى صدرها ، وانا اسمع وجيبَ قلبها الحنون ، وتمتمت : « لفّ نفسي على شبابك الغضّ يا بني ، لفّ نفسي على هذين الخدّين الذابلين ، وهاتين العينين الساجيتين، وهذا المحيّا الشاحب ، الذي كان يشعُّ بنور الصبا ، وضوء الشباب . . . اعرف يا بنيّ ان داءك ليس في جسدك ، بل في نفسك ، لانك تتذوّق ما فوق ، لا ما على الارض ، فهلاّ بحتَ لي بخبيئة صدرك ، لان الاحزان اذا تنفّست ، خفّ وقعها على القلب »

***

ابتسمتُ ابتسامة مريرة ارتسمت عليها احزان نفسي ، فالمكست اشجاني على صفحات قلب امي الحنون ، فهمّتْ عناها تأثراً، وطوقتني بذراعيها مُسِرّةً اليّ : للشباب يا بنيّ مطالبُهُ التي لا ينجح فيها دواء ، ولا يؤثر بها عزاء ، فعبثاً احاول نصحك ، او تخفيف لوعتك

ولكني واثقة بان ما تسلّل الى قلبك ، هو تدفق الروح في الروح ، لا ميل الحاسة الى الحاسة ، لان الحبّ زنبقة الحياة الطاهرة العبقة ، يستنشق عبيرها دون مسّ ، فاذا مانالتها يدٌ ، ذبلت اوراقها ، وعفا اريجها ، وتناثرت اكمامها

القلب قائم في حياة الانسان على قدم وساق ، بين سعادته وتعاسته ، والانسان هو الرهان الذي تتراهنان عليه ، لكنهُ يقف جامداً غير عابئ بما يجري امامه ، حتى ينتهي الشوط فيتلقفهُ الرابح ، ويتصرّف به وفقاً لاهوائه واميالهِ الى الابد ، ولم اشذ عن هذه القاعدة ، ولكن الشقاء رحمني فلازمني ، غير ان من لم يذق العذاب لايرثي لحال انسان ، فقد تألمت امي ولذا رثت لحالي ، ومنحتني كل ما تملك ، لأرفهَ عن قلبي في بلاد اخرى ، فضربتُ في رحاب الارض وشعابها ، ولكن في نفسي الغصّة كان بصيص الحياة الضعيف ، يمتزج بشعاع الموت المبهم ، فلم ينقشع عن قلبي شتاء الالم ، لان الهناء وهو الشمس بحرارتها ونورها ، لم تكن تجد سبيلاً اليه لتطرده منهُ

الأسى والالم هما حاجة النفس الحيّة ، التي لم تقتلها ملاذ الدنيا الحسيّة ، فهي لاتُنعم إلاّ بهما ، ولو انها تجد فيهما شقاءها وتعاستها ... مالت الشمس للغيب وغشت الارض ظلمة الليل ، كما غشّى على روحي غيش آلامي واحزاني ، فسارعت الخطى الى المقبرة ، حيث مرقد الاماني الضائعة والآمال التي لم تحقق ، وتسللت بين التُرب وانا اشبه بروح حائرة ، تسير مدفوعة بقوة غير منظورة ، دون ان تجد لها مكاناً تستريح فيه ، فوقفت على جدث الوالدة الرؤوم ، وامواج عواطفي تقذف من داخلي ، بقطع كبدي ومزق فؤادي ، وجثوت على ترابهِ معفّراً وجهي به ، لأستروحَ نفحاته العبقة الطاهرة ، فتمثلتْ تفاهة الدنيا ، وخطر لي ان ادفن نفسي بجانب من هي قطعة مني ، وانا قطعة منها ، لأتخلص من هذا الليل المرعب الذي يسمونهُ الحياة ، فمددت يدي ، وشرعت احفر الارض ، وانا مكبٌّ بكليتي عليها ، فخُيّل لي اني اسمع صوتاً في تلك الارجاء الساكنة الهادئة ، فاقشعر بدني ، ورفعت رأسي ، فابصرت الموتى قد نهضوا من مضاجعهم ، وتطلعوا بعيونهم المجوّفة ، ومدّوا ايديهم نحوي بغضب ، وطرق مسمعي اصوات تصيح ، كانها خارجة من اجواف القبور : لماذا تعكّر علينا صفو راحتنا وسكينتنا ؟ يا ابن الشقاء ، عُدْ الى دنياك ، فانك لم تتمّ بعد عذابك فيها ، فكدتُ افقد عقلي ، وقفزت من مكاني ، وشبحُ امي يودّعني بنظرة مفجعة ، واسرعت هارباً ، لا أوي على شيء ، والام الحياة تدفعني الى العدم ، والاموات تصدني عنها ، وتطردني من حظيرتها ، والموت وهو سعادة الانسان في حياته يهرب مني ويبتعد عني

القاهرة جورج نقولاوس